الإمام محمد الخضر حسين التونسي الذي رفعه علمه وخلقه وجهاده إلى مشيخة الأزهر (٥٩)

بقلم: د. غريب جمعة

المرحلة المصرية (٣٩):

مع رسالة الدعوة إلى الإصلاح.

× الإخلاص في الدعوة:

الغاية من «الدعوة» صلاح العالم، وانتظام شؤونه على منهج السعادة.

فإذا وجه الداعي قصده إلى هذا الغرض وأقامه نصب عينه استقام على الطريقة وقضى حياته في سيرة راضية، وإذا انحرف عن هذا القصد - قيد أنمله - رأيته يضطرب في حال دعوته كالريشة تخفق بها الرياح أينما تصرفت. ويرشدنا قوله تعالى: «قل لا أسألكم عليه أجرًا إن هو إلا ذكرى للعالمين» (الأنعام-٩٠) وقوله تعالى: «اتبعوا من لا يسألكم أجرًا وهم مهتدون» (يس-٢١) إلا أن تشوف الداعي إلى ما في أيدي القوم وتطلعه إلى أن ينال من وراء إرشاده شيئا من متاع هذه الحياة قادح في صدقه وداخل بالريبة في إخلاصه. ولا يدخل في زمرة المصلحين من يظهر بدعوى الغضب للعدالة ويعلن البغضاء لمن يروم انتهاك حرمتها، ثم يُبْصِرُ مرة أخرى قوما يعمدون إلى حقوق قائمة فيقتلون أعناقها، فإذا هو يتبسم لصنيعهم تبسمَ المرتاح أو يشاركهم في دفنها ولو بحثية من تراب. ماذا حمله على حب العمل بالحق والانتصار له أولا، ثم ماذا بعثه على خذلانه والارتياح لإزهاق روحه ثانيا؟ إقامة الحق في الأولى تعود عليه بمنفعة، فكان من أشياعه، أما إطفاء نوره في المرة الأخرى فلا يذهب بحظ من لذائذه لذلك لم يأسف للقضاء عليه.

تهافت كثير من أصحاب الضمائر المعتلة على منصب «الدعوة» واجتهدوا في كتم سرائرهم بغاية ما يستطيعون، وما لبثوا أن انكشف سرهم وافتضح أمرهم سنة الله في الذين يظهرون غير ما يبطنون في أنفسهم.

والتمييز بين من وقف ينادي للإصلاح صادقًا، ومن لبس قميص المصلح - عارية لدنيا يصيبها أو وجاهة يتباهى بها - إنما تهدى إليه الفراسة المهذبة والاختبار الصحيح، فإذا أبصرنا داعيا ذا يسار، ولم يظهر في طبيعته حرص على نماء ما بين يديه من المال أو قام يدعو فريقا ليس من دأبهم بسط أكفهم بصلة الدعاة فما كان لنا أن نرميه بتهمة القصد إلى اصطياد ما في خزائن الناس من زينة هذه الحياة.

ومن شواهد طيب السريرة: أن ينادي قومه للإصلاح سنين، ويتمادى في سعيه المتواصل إلى آخر رمق من حياته من دون أن يفل عزمه تباطؤهم عن إجابته أو مقابلتهم لصنيعه بالكفران. والشأن فيمن انطوى صدره على سريرة غير طيبة أن يبتغي إليها الوسيلة فإذا أبطأت به ولم تقع عينه إلا على خيبة وإخفاق مل العمل وصرف جهده إلى وسيلة أخرى.

والذي يواصل سعيه، وينفق معظم حياته في الدعوة قد نصفه بسلامة النية وإرادة الخير لقومه، ولكنا لا ننعته باسم: «المصلح» إلا إذا صفا منهجه واستقامت آراؤه، فمن الدعاة من تطيب سريرته ويخلص قصده وإنما يخونه قلة بضاعته في العلم أو قصور نظره عند قياس الأشياء بأشباهها أو اقتباس الأصول من فروعها.

× طرق الدعوة:

تؤدي الدعوة باللسان تارة، وبالقلم أخرى ولكل منها مقام هو أحق به من الآخر ففي الناس من يسعده لسانه فيعبر كيف يشاء، ويمسك القلم فلا يجده مطواعا. وفي الناس من إذا نطق وقع في كبوة وإذا كتب أبدع وبلغ ببيانه ما يجول في ضميره الأمد الأقصى.

فينبغي للداعي أن يبصر في نفسه ويعرف من أي صنف هو، ثم يأخذ الناس بالطريق التي يركبها ذلولا.

والدعوة بالكتابة أوسع جولة وأخلد أثرًا، ومن فوائدها: إرشاد من لا يمكنك أن يخاطبه فوك إلى أذنه، وإرشاد المنحرفين عن السبيل مع البعد عن ساحتهم والسلامة من أن يواجهك سفهاؤهم بالسخرية والأذى.

وقد عُني الإسلام بالخطابة، فشرَّع الخطب أيام الجمع والأعياد، ليقوم فيها الخطيب بإرشاد يراعى فيه حال الأمة، فيقرع أسماعها بالموعظة الحسنة ويستنهضها للأعمال التي تكفل عزها في الدنيا وسعادتها في الآخرة.

ذهل كثير من الخطباء عن هذه الحكمة فالتزموا لكل شهر خطبًا معينة يسردونها سردًا ولا ينظرون فيها إلى ما يقتضيه حال الناس في التعليم أو التذكير. وبصنيعهم هذا خرجوا بالخطب عن أن تكون طريق الدعوة إلى إصلاح.

ويزيد في حسن الخطبة ونفعها: أن تكون من إنشاء الداعي ويكون نفعها أبلغ إذا استطاع أن يرتجلها ارتجالا، فإن الأقوال التي ينزع معناها بنفسه ويسبك عباراتها بطبعه تكون أبلغ أثرًا في السامعين وأملك لعواطفهم من أقوال صنعت من قبل، فأخذ يحكي ألفاظها حرفا فحرفا.

والأقوال المنشأة حال إلقائها تصدر عن انفعال نفسي، وقوة إرادة، فتنفذ في نفس السامع بألفاظ جديدة وهيئة غير مصطنعة، لا تشاهدها على ظاهر الناقل أو المترجم لكلام غيره إلا أن يتكلفها.

وتختلف طرق الدعوة - من حيث طرز الكلام ومبلغ الاستدلال - إلى ما يفيد يقينا لا ريب فيه وإلى ما يفيد ظنا غالبا قال تعالى: «أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن» (النحل-١٢٥) قد ذهب أهل العلم إلى أن المراد من الحكمة: الحجة المفيدة لليقين ومن الموعظة الحسنة: الأمارات الظنية والدلائل الإقناعية ومن المجادلة بالتي هي أحسن: الدليل المؤلف من مقدمات مسلمة عند المنازع.

ولم يرتض الشيخ ابن تيمية تفسير الآية بهذه الطرق المنطقية في رسالة «معراج الوصول» حيث يقول: بل الحكمة معرفة الحق والعمل به، فالقلوب التي لها فهم وقصد تدعى بالحكمة، فيُبين لها الحق علما وعملا فتبلغه وتعمل به، وآخرون يعترفون بالحق لكن لهم أهواء تصدهم عن اتباعه فهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة المشتملة على الترغيب في الحق والترهيب من الباطل. والدعوة بهذين الطريقين لمن قبل الحق ومن لم يقبله فإنه يُجادل بالتي هي أحسن. ثم قال: والقرآن لا يحتج في مجادلته بمقدمة لمجرد تسليم الخصم بها - كما هي الطريقة الجدلية عند أهل المنطق وغيرهم بل بالقضايا والمقدمات التي تسلمها الناس، وهي برهانية، وإن كان بعضهم يسلمها، وبعضهم ينازع فيها ذكر الدليل على صحتها.

× أدب الدعوة:

لا يكفي في الدعوة أن يكون في يد القائم بها حجة أو موعظة يلقيها في أي صورة شاء فإن المخاطبين يختلفون ذوقا وثقافة اختلاف الزمن والبيئة ومن اللائق أن تصاغ دعوة كل طائفة في أدب يليق بأذواقها وثقافتها. والخبرة بما للطوائف من أحوال نفسية وإلقاء في الثوب الملائم لهذه الأحوال موكول إلى ذكاء الداعي ورسوخه في فنون البلاغة وأدب اللسان. ولا يمنعنا هذا من تذكير القارئ ببعض جمل نوردها كأمثلة للأدب الذي تخرج به الدعوة في خطاب بليغ.

× من أدب الدعوة الرفق في القول واجتناب الكلمة الجافية فإن الخطاب اللين قد يؤلف النفوس الناشزة ويدنيها من الرشد والإصغاء إلى الحجة أو الموعظة. قال تعالى في خطاب موسى وهارون عليهما السلام: «اذهبا إلى فرعون إنه طغى، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى» (طه: ٤٣/٤٤). ولقن موسى - عليه السلام - من القول اللين أحسن ما يخاطب به جبار يقول لقومه «أنا ربكم الأعلى» (النازعات- ٢٤).

فقال تعالى: (فقل هل لك إلى أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى) [النازعات- ١٨، ١٩].

ويندرج في سلك هذا صرف الإنكار إلى غير معين كقوله صلى الله عليه وسلم «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟ فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية».

ومن أمثلة هذا الأدب: أن يوجه الداعي الإنكار إلى نفسه وهو يعني السامع كقوله تعالى فيما يقصه عن رجل يدعو إلى الإيمان بالله «وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون» (يس-٢٢) فإنه أراد تقريع المخاطبين إذ أعرضوا عن عبادة خالقهم وعكفوا على عبادة ما لا يغني عنهم شيئًا فأورد الكلام في صورة الإنكار على نفسه تلطفا في الخطاب وإظهارا للخلوص في النصيحة حيث اختار لهم ما يختار لنفسه.

× وأيضًا من هذا الأدب: أن يضع نفسه بمنزلة السائل المتطلب للحقيقة وتقديم الحجة في معرض الاسترشاد، حتى تعلق بأذهان المخاطبين قبل أن يشعروا بغرضه فينصرفوا بقلوبهم عن الإصغاء إليه، ومثل هذا ما فعله إبراهيم - عليه السلام - في محاجة قومه المشار إليه بقوله تعالى: «إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون. قالوا نعبد أصنامًا فنظل لها عاكفين× قال يسمعونكم إذ تدعون× أو ينفعونكم أو يضرون» (الشعراء: ٧٠-٧٣) وقال تعالى في تعليم رسوله الأكرم كيف يدعو إلى الحق: «قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين» (سبأ- ٢٤) فإذا لم يظهر الداعي أنه على بينة من أمره، وألقى الكلام في هيئة المتردد الذي لا يتيقن أن الهدى في جانبه كان كالمستعين برأي المخاطب في البحث عما هو حق ورشد فتنحل في قلب هذا المخاطب عقدة التعصب وربما طمع في الداعي وأخذه إلى مذهبه، فيقبل على النظر بجد حتى يمر به مغالبة الداعي على الآيات البينات فإذا هو ينظر إلى الحق فإما إيمانًا وإما عنادًا.

ومن لطف الدعوة: أن تنادي المدعو بلقبه الشريف، وتنعته بوصف شأنه أن يبعث صاحبه على قبول الموعظة أو الإنصاف في المجادلة، وهذا الأدب مقتبس من قوله تعالى «يا أهل الكتاب» (آل عمران- ٦٥)

«ياأيها الذين آمنوا» (البقرة-١٠٤)

«يا أولي الألباب» (البقرة-١٧٩) «يا أولي الأبصار» (الحشر-٢) وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم هرقل في كتاب دعوته إلى الإسلام بعظيم الروم ويتأكد مثل هذا الأدب في موعظة الصغير الكبير والمرؤوس الرئيس ولا سيما حيث تضرب على الدولة طبائع الاستبداد.

× يذهب بعض الناس في الإنكار على من يراه مبطلاً مذهب الفظاظة في القول فيرميه باللعن والشتائم، وفن الشتم والهجاء مما يبذر الشقاق الذي نهينا عنه وربما حمل المبطل على التعصب لرأيه أو هواه وقبض عليه باليمين والشمال.

والناس يعرفون أن طريقة السباب في المجادلة إنما يسلكها العاجز عن إقامة الحجج الدامغة فترى المقال الذي يحرر في سعة صدر وأدب مع المخالف يجد من القبول وشدة التأثير في النفوس ما لا يجده المقال الذي يخالطه السفه والحماقة، وكذلك ترى المستيقن أنه على حق مطمئن الخاطر آمنًا على مذهبه من صولة الباطل فينطق أناة وتخير للأقوال الصائبة. أما من لم يكن على بصيرة من رأيه أو عقيدته فإنه ينزعج عند المجادلة، ويطيش به الجدل حتى يقذف بالسباب ويلفظ بالكلام من قبل أن يقيم له وزنا.

وقد يكون حديثك مع طائفة باعوا أنفسهم بمتاع هذه الحياة، واندفعوا لإغواء الأمة والكيد لشريعتها وحياتها السياسية بجميع ما ملكوا من صفاقة وعناد وسوء طوية. ولعل الناس يعذرونك حين تتصدى لكف بأس هؤلاء، ويجري على لسانك أو قلمك في خلال جدالهم كلمة تتهكم بعقولهم أو تزدري آراءهم أو تنبه إلى مكر انطوت عليه دعايتهم.

إشكالية استقبال الطبيعة البشرية لمطلوبات الدين

بقلم: السفير د. عبدالله الأشعل

يستقبل الإنسان تكليفات الدين وفقًا لطبيعته واستعداده وثقافته وموروثاته ولذلك يختلف السلوك حتى لو اتحد الفهم والثقافة من شخص لآخر أن الدين الواحد نزل برسالات ورسل في ركب الأنبياء والرسل الذي ختمه محمد صلى الله عليه وسلم بمعجزته الخالدة وهي الكتاب الجامع والخاتم وهو القرآن الكريم فاختلف موقف الإنسان عند تلقيه الرسالة وقد لاحظت أن الإنسان المعاصر الذي تلقى رسالة الخاتم مصدقًا لكل الرسالات السابقة ومؤمنا برسل الله جميعًا يختلف رد فعله من شخص إلى آخر ويمكن أن نقسم ردود الفعل إلى أربعة أقسام؛ قسم اندمج في الرسالة وأحبها وعشق العبادة بموجبها واقترب من الله انطلاقا من الواقع الذي يعيشه ومستفيدا من الدنيا للفوز في الآخرة هذا القسم من الناس هيأ نفسه وهذَّب طبيعته لكي تستقبل نور الرسالة والشكر والأداء المخلص فلا يجد تنافرًا بين طبيعته والأرضية التي صنعها وبين مطلوبات الرسالة وهذا القسم في الواقع عندما تأملنا مسيرته اتضح لنا أن هذا القسم عاد إلى إنسانيته التي خلق الله الناس عليها بفطرته السليمة التي أشار إليها الحديث الشريف يولد الإنسان على الفطرة ولذلك كانت عبادة الإنسان وهو على الفطرة أصدق العبادات استجابة للعهد الذي أخذه الله على ذرية آدم.

القسم الثاني هو الذي ترك نفسه على سجيتها ولم يقوم انحرافها وفجورها ولكنه اضطر إلى الانخراط في شكليات الدين فأصبح يعانى من انفصام في الشخصية فهو أمام الناس يؤدى الطقوس وربما تعمد ذلك للاستفادة من هذا الوضع خصوصًا في مجتمع يعتمد على المظاهر أما سلوكه فهو منسجم مع طبيعته ونفسه وهذا ما أسميناه في موضع آخر التدين الشكي.

أما القسم الثالث فهو الذي يمارس الشعائر ويجد في بعضها استجابة وفى بعضها الآخر نفورًا وهذا هو التدين المنقوص الذي قام على ثقافة الفصل بين الأشياء فما دام يؤدى الشعائر فإنه يفصل بين ذلك وبين سلوكه ولم ينتبه إلى أن السلوك هو المبتغى في كل الشعائر لأن الله غنى عن أن يتظاهر الإنسان في أداء الشعائر ثم يسلك سلوكا معيبًا.

وأما القسم الرابع فهو الذي يجاهر بأن طبيعته كما خلقه الله هي التي تحكم سلوكه وأنه يريد عون الله في تعديل هذه الطبيعة أولا وهذا القسم منتشر انتشارا مخيفا ويلامس أحيانا خطوط الإلحاد وهو ترديد لمزاعم أوردها القرآن الكريم على لسان الذين كذبوا برسالات الله حيث رددوا أنه مادام الله قادرا على كل شيء وهو الذي يوجه إلى الهداية أو الغواية وهو الذي كتب الشقاء والسعادة فإنه قادر على أن يهدينا إلى الإيمان. وقد لاحظت في الحياة اليومية أنك عندما تدعو مدخنا إلى التوقف عن التدخين فإنه يزعم أن الله كتب ذلك عليه وهي نقمة يصبر عليها ويجزيه الله خيرًا عنها مادام يؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر ويؤدى طقوس العبادة وأركان الإسلام وهذا القسم يظهر الأزمة التي يقع فيها عموم المسلمين وهذا هو الذي شجَّع بعض الحكام على حث الشعوب على الفصل بين السياسة والدين أي بين سلوك الحكام وبين مطلوبات الدين وهو خطأ وقعت فيه الحكومات الإسلامية والشعوب لأسباب تتعلق تاريخيا بجهل الناس بدور الدين في ضبط السلوك فلا يزال البعض يعتقد في خرافات وقصص يتم تداولها حول بعض المنحرفين الذين كانت عاقبتهم الجنة ومن هذه الخرافات التي يصدقها ضعاف النفوس والثقافة أن سكيرًا عربيدا كان جارًا لأبى حنيفة فلما مات رفض أبو حنيفة أن يصلى عليه ثم رأى في المنام ذلك السكير في حدائق الجنة وفسرت زوجة السكير ذلك بأنه كان يطعم اليتامى ساعة الجمعة ويطلب منهم الدعاء له. وقد تكون القصة صحيحة ولكنها تساق في موضع الخطأ وتعطي انطباعا فاسدا عن علاقة الدنيا بالآخرة.

والخلاصة أن ثوابت القرآن الكريم ومنها الأجل لا يتغير بالدعاء وإن كان الدعاء مطلوبا على سبيل التقرب إلى الله وأن إرادة الإنسان واستنفاذ ما يجب عليه أساسي في أن يمد الله يده إليه وأن صيغ الإحالة إلى الله المألوفة في ثقافتنا الشعبية لا يصدقها عمل وأن الإيمان لا ينفصل عن العمل فالإيمان نفسه هو ما وقر في القلب وصدقه العمل على ما ورد في الأثر. ونضيف إلى ذلك أن الإنسان هو الذي يهيئ نفسه للطاعة والمعصية وأن الله يعينه على قراره في الاتجاهين وأنه كلما عادت طبيعة الإنسان إلى الفطرة بالعمل والمجاهدة فإنه يستقبل مطلوبات الدين ويحقق السلام النفسي وتعمه السكينة ويرى الأشياء على حقيقتها.

أفعال نظنها قليلة تسعد الآخرين

بقلم: أ.د. أمين عبداللطيف المليجي

أحيانا نقوم بأفعال نظنها قليلة ولكنها تدخل الفرحة والسعادة على قلوب الناس، مثلا نسلم على أحد من الناس من دون أن نعرفه أو نبتسم في وجهه، أو نقوم بمساعدة أحد الناس حين يعبر الطريق، أو نقوم بترك مقعدنا لإنسان يحتاج إلى أن يجلس مهما كان عمره، كلمة طيبة تقولها لإنسان وهو حزين أو مهموم، رسالة ترسلها فيقرأها إنسان ربما لا تعرفه وصلته من صديقك الذي أرسلت له الرسالة فتغير حياته أو تزيل همه، حتى ما نقوم فعله مع الأطفال من حركات تجعلهم سعداء ويضحكون من القلب، وبمناسبة الأطفال كانت ابنتي معي وهى ابنة الثلاث سنوات وقد كنا في مدينة سندرلاند الإنجليزية، وكنت ألعب مع ابنتي بأشياء بسيطة ولكنها سعيدة وفرحانة، وكانت تجلس بجانبي سيدة انجليزية كبيرة في السن فقالت لي جملة بالإنجليزية معناها-أشياء قليلة أو بسيطة تسعدهم وتفرحهم - أي تفرح الأطفال وتسعدهم، ومازالت الجملة ترن في أذني ولم أنسها أبدا، بالرغم من مرور زمن طويل وقد مررت بلحظات من العسر ولحظات من اليسر، وتلك حال الدنيا لحظات عسر ولحظات يسر، ولكن دائما يأتي اليسر مع العسر، وكرر الحق كلمة اليسر مرتين بعد العسر في سورة الشرح، «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا(٦)» وكما قال المفسرون لن يهزم عسر يسرين، ودائما ما يأتي النور ليزيل الظلام، ويأتي فرج الله ليزيل الهم والحزن، وهنا أتذكر ما فعله سيدنا موسى عليه السلام عندما وصل إلى مدين ووجد أمة من الناس يسقون ولكن كان هناك امرأتان لا تستطيعان أن تسقيا إلا بشقاء شديد حتى يفرغ الناس ويتركوهما، فقام وسقى لهما وهو يظن أن ما فعله شيء قليل، ولكنه في الحقيقة فعل شيئا كبيرا في نظرهما وفى نظر أبيهما، وقد جاءه الرد سريعا على هذا الصنيع عالي الأخلاق، فقد جاءته إحداهما تدعوه إلى بيتهم لأن أبيها يريد أن يرد إليه الصنيع، الذي فعله وهو لا ينتظر أي رد، فقد قال لما ركن إلى الظل «رب إني لما أنزلت على من خير فقير» وما حدث بعد ذلك لسيدنا موسى معروف ونتلوه دائما في كتاب الله، وأيضا يحضرني حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال فيما معناه «تبسمك في وجه أخيك صدقة» بسمة في وجه أي إنسان صدقة تكتب لك وأنت لا تدرى، فلا تبخل بالتبسم لأي إنسان فمن يدرى ربما تكون تلك البسمة منجاة لك من هول يوم القيامة، وليس ذلك فحسب، بل إن رسول الله قال أيضا في معنى الحديث أن الإيمان بضع وستون أو سبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان فقد يظن بعض الناس أن رفع الأذى والقاذورات من الطريق ليس له أهمية ولكن ذلك فعل عظيم وهو من شعب الإيمان، فما بالك وقد رفعت شيئا يمكن أن يصيب إنسانا بجروح أو برائحة كريهة، فإنك بذلك تكون قد فعلت شيئا رائعا فلا تتركه كلما أمكنك ذلك، حتى الحياء الذي لا يفكر فيه كثير من الناس، هو عند الله عظيم وقد جعله الرسول من شعب الإيمان، فلا تحرم نفسك من تلك الأفعال القليلة التي لها قدر عظيم عند الله وتأثير عظيم في الناس.

من وحي الإسلام

الفنون الإسلامية: فن الأرابيسك والزخارف الإسلامية (٤)

بقلم: يوسف الملا

× تاريخ فن الأرابيسك:

يعتبر فن الأرابيسك من الفنون العربية الأصيلة لدى بعض الدول العربية حيث يطلق عليه زخرفة التوريق وفنون الرقش لأنه واحد من الفنون المبتكرة التي تميزت بها الحضارة العربية الإسلامية والذي تعود أصوله إلى أكثر من ألف عام وهو صناعة معمارية الطابع تدخل في مجال الأثاث بطرزه الإسلامية المختلفة الأشكال والاستخدامات، وتمتد لتصل بالتكوينات المعمارية الخاصة بالمساجد والقصور بالإضافة إلى الأعمدة وتيجانها ومنابر المساجد المشغولة بشكل متكامل بهذا الفن.

وقد بدأ فن التوريق من قديم الزمان أيام الدولة العثمانية، وتطور انتشاره إلى بعض الدويلات العربية عندما نقلته الدولة العثمانية إلى غيرها ويذكر بعض الباحثين المتخصصين أن فن الأرابيسك أصلاً من الفنون التركية العثمانية التي تمركزت في مصر وسوريا والعراق وعدد من دول المغرب العربي

ويرجع لفظ أرابيسك إلى المعنى التركي (أرابيسك) وتعني الفن المشغول لدى العرب وقد تطور من دولة إلى أخرى على مر السنين، ودخلت عليه بعض التعديلات والمسميات في القرن السابق ويعتبر هذا العمل اسما للفن وليس اسم أداء العمل!

× إدماج العلوم بأساليب الفنون:

لم تكن أشكال الأرابيسك الهندسية (ARABESQUE) تستخدم على نطاق واسع في الشرق الأوسط أو حوض البحر المتوسط حتى ازدهر العصر الذهبي للإسلام ازدهارًا كاملا ففي هذا الوقت كانت النصوص القديمة في الرياضيات اليونانية والإغريقية وكذلك الرياضيات الهندية تترجم إلى اللغة العربية في بيت الحكمة التي كانت بمثابة مؤسسة للبحوث الأكاديمية في بغداد ومثل ما حدث مع أوروبا في وقت لاحق مع عصر النهضة الأوروبية فإن إدماج مجالات الرياضيات والعلوم والآداب والتاريخ وحقنها في العالم الإسلامي أدت إلى انعكاسات إيجابية عظيمة أوجدت إنجازات علمية في بناء الحضارة الإنسانية.

فكانت أعمال العلماء القدماء مثل أفلاطون وإقليدس وبراهما غوبتا تقرأ على مستوى واسع بين المتعلمين، وتم تطوير هذه الأعمال لحل المسائل الرياضية التي نشأت نتيجة الحاجة إلى تحديد وسمت القبلة وأوقات الصلوات ورمضان فوردت أفكار كثيرة جديدة وصارت بمثابة دفعة قوية للفن الذي أصبح فن الأرابيسك.

ومن هذه الأفكار المبتكرة أفكار أفلاطون التي توضح وجود واقع منفصل مثالي في الشكل والوظيفة وبلوري في الطابع الهندسي الإقليدسي التي طورها العالم العباس بن سعيد الجوهري الذي عاش بين عامي (٨٠٠-٨٦٠ الميلادية) وذلك في تعليقه على عناصر إقليدس هندسة «ارياباتا» وبراهما غوبتا «التي أضاف إليها العالم محمد بن موسى الخوارزمي (٧٨٠-٨٥٠ م) تطوير الهندسة الكروية من قبل العالم أبو وفاء البوزجاني (٩٤٠-٩٩٨ م) وعلم المثلثات الكروية للجياني آنذاك (٩٨٩-١٠٧٩م) لتحديد اتجاه القبلة ومواقيت الصلوات ورمضان، وليس غريبًا أن تكون الفنون سلسلة من الأشكال الهندسية المتعارف عليها بعد عملية البحث والتحليل.

يصف الباحث (ايتنجهاوسين) الأرابيسك «بأنه تصميم نباتي يتكون من نخيلات كاملة أو نصف كاملة في نمط مستمر لا ينقطع حيث تنمو ورقة من طرفه الآخر».. وبالنسبة إلى المسلمين فإن الأرابيسك يرمز إلى وحدة الإيمان والطريقة التي تنظر بها الثقافات الإسلامية التقليدية إلى العالم.

× فلسفة ومنهجية فن الأرابيسك:

حكم هذا الفن بتطبيق منهجية يجرى فيها استخدام رسوم وتصاميم تظهر بصورة تكريرية للأشكال الهندسية النباتية المتعانقة بشكلها المبسط أو بإرجاع تلك الأشكال إلى وحداتها الهندسية الأولية، بصورة تغلب فيها روح الزخرفة التي تسيطر عليها التجريد من دون أن تكون جافة، بل تتمتع بالكثير من الحيوية والمرح والتفاؤل.

إن اختيار أي من الأشكال لاستخدام هذه الزخارف والتزيينات وتوضيحها يعتمد على «توجه صوفي» ليس ببعيد عن تكريس الرؤية الإسلامية للعالم، حيث إن تلك الأشكال تعبر مجتمعة عن نموذج لانهائي للكون والعالمين بما يتسق مع لا محدودية للخالق عز وجل الذي أبدع كل شيء، كما لا نهاية الأشياء تمتد إلى وراء العالم المادي المرئي وهنا العالم للمسلمين هو عالم إسلامي لا مراء فيه ولا شك ولا ارتياب!

ثم بوجود الواحد الأحد عز وجل، بل أكثر من ذلك يرون أن فنان الأرابيسك المسلم ينقل في عملية روحية شكلانية تصعيدية من دون أن يستخدم الأيقونوغرافية (ICONOGRAPHY) الصورية التي نجدها مستخدمة في الفن المسيحي والمتمثلة بالأيقونات (ICONS).

× العناصر الزخرفية المستعملة في الأرابيسك:

إن هذا الفن يتسم بأسلوب تزييني محكم يمتاز بأشكال مخروطية ومزدوجات متداخلة أو مضفورة محكمة ومتناهية الدقة، وهي ممزوجة بوحدات زخرفية من الغروتيسك (GROTISQUE) حيث تتداخل فيه الأشكال الحيوانية والإنسانية أو الرمزية، والتوريق وهو رسم أوراق وأزهار وأغصان النباتات فتعبر بذلك عن الغرض المطلوب.

وقد ارتقى استخدام الأشكال الهندسية في الفن التزييني العربي أكثر من أشكال المجسدات المعروفة (FIGURATIVE FORMS) وربما كانت تلك التحديدات قد فرضت تحت وقع التشدد الديني في منع استخدام تجسيد المخلوقات والكائنات الحية حفاظًا على صفاء العقائد الدينية عند اتباع الديانة الإسلامية من عرب وشعوب أخرى مختلفة من المسلمين.

× عملية جلب الفنانين كانت قسرية:

وظهر فنانو العرب لعمل الأرابيسك في مصر والشام الذين تم إيفادهم إلى مدينة اسطنبول التركية في القرن التاسع عشر الميلادي لتزيين قصور السلاطين العثمانيين، ويروى أن عملية جلب الحرفيين المسلمين كانت قسرية حتى إن بعضهم اشتهر في فن التوريق والرقش وروعة الفنون الإسلامية الأخرى بأشكالها المتنوعة، وانسجامها وتوافقها مع واقع البيئة الحضارية العربية الإسلامية.

كما تعبر في أنماطها المختلفة عن الطبيعة الثقافية والحضارية للأماكن التي أنتجت منها وإلى ميول الطبقات الاجتماعية التي كانت تستخدم هذه المهنة في تزيين أثاثها وبيوتها وقصورها لم يعودوا إلى بلدانهم بعد إنجاز عملهم مرة أخرى فكانوا بمثابة «أسرى فن» واستحبوا الإقامة فيما بعد!

× صناعة التوريق والرقش:

وتمر عملية الإنتاج بعدة مراحل تبدأ بإعداد الرسومات الهندسة للأجزاء المطلوب خرطها، واختيار نوع وحجم الخشب - الأبنوس والعاج ومواد التشطيب ثم التثبيت على جهاز المخرطة، وطبع التصاميم على الأخشاب والحفر والتشكيل وأخيرًا الدهان لأن الأرابيسك صناعة وفن في وقت معًا رسم متقن وتعشيق القطع ونقشها وتطعيمها بطرق متوالية ومتتامة.

(الهوامش: فن الأرابيسك: ستارتايمز، الأرابيسك فن ورموز: الأستاذة أحلام محمد علاقي- صحيفة عكاظ، الأرابيسك فن هندسي عربي أصيل: الأستاذة شيرين رمضان، الأرابيسك آلة زمن تنقلك للعصور الإسلامية: الموقع الوطني، فن الأرابيسك إبداع إسلامي قديم: الأستاذ خليل العلي ديسمبر ٢٠١٥م)

حديث القلب

الدكتور الرئيس

ثلاث سنوات ونصف السنة تقريبا، لم أطالع فيها هذا الكتاب القابع في زاوية معتمة مترية على رفوف مكتبتي.

الكتاب تناولته ضمن مجموعة كتب لأعيد ترتيب بعضها على الأرفف، وتأهيل بعضها ما أمكن، فإذا بغلاف هذا الكتاب المتهالك يشدني للخلف ٤٠ سنة خلت، حين وقعت عيناي على إهداء صاحبه في سطرين أعلى الزاوية اليسرى من الصفحة الأولى، كاد يُمحى بعوامل التعرية وفعل الزمن.

يقول صاحب الإهداء: «إلى ولدي العزيز حامد أهدي إليك هذه المراجعات التاريخية المتواترة، علها تفيك بما تبحث عنه» وبكل تواضع الفقيه المهذب العالم، أمهر توقيع اسمه تحت الإهداء من دون لقبه.

لم أتمالك مشاعري وأنا أقرأ الفاتحة على روحه الطاهرة، ورغم أن عيني اغرورقت بالدموع، فإنها كانت في أعماقي «أودية تسيل بقدرها» حيث تعلمنا على يديه في تاريخ النظم القانونية والاجتماعية أن الخطابات الصادرة من رأس الدولة، قد تأخذ وقتا للدراسة والبحث كي يتم تفعيلها.

كان أستاذ هذه المادة المقررة على طلبة كلية الحقوق بالمنصورة، هو المرحوم الدكتور «صوفي أبوطالب» رئيس مجلس الشعب المصري الأسبق والرئيس المؤقت لمصر المحروسة لثمانية أيام تقريبا، عقب وفاة الرئيس الراحل «أنور السادات» إلى أن تم انتخاب الرئيس «حسني مبارك» في ١٤ أكتوبر ١٩٨١ رئيسا للجمهورية.

لقد تشرَّف «العبد لله» بمناقشة الدكتور الرئيس «أبو طالب» أكثر من مرة، في الاستراحات التي كانت تتخلل المحاضرات عن الفرق بين الاشتراكية والديمقراطية، وموقف الإسلام منهما، والصراع الدائر يومذاك بين الرأسمالية والشيوعية، والتوقعات بسقوطها في قادم الأعوام، إضافة إلى ما ورد في بحوث كتابه المقرر علينا في الحقوق، عما تسنه الحكومات من أنظمة رقابية لمحاسبة الكثيرين، وتتمتع هذه الأجهزة الرقابية التي تشكلها الحكومة، بسلطة إصدار القرارات في الإحالة على التحقيق، وتغيير الكراسي في الكثير من مواقع العمل المختلفة، ضمن مؤسسات الدولة الرسمية.

المرحوم «صوفي أبو طالب» كان قريبا جدا من تلاميذه، عطوفا عليهم، وشجاعا لا يهاب قول الحق، وأكاديميا ناجحا، وسياسيا بارزا، أحبه الرئيس «السادات»، وقد تجلى هذا الحب واضحا في رئاسته لمجلس الشعب المصري خمس سنوات قبل ١٩٨٣. التقيته مرتين خارج النطاق الجغرافي لكلية حقوق المنصورة المنتدب إليها لمحاضرتين في الأسبوع من حقوق القاهرة، المرة الأولى في مكتبه بكلية الحقوق جامعة القاهرة، وقد أهداني كتابه «تاريخ النظم القانونية والاجتماعية» ممهورا بتوقيعه، والثانية حين التحقت بالدراسات العليا للاقتصاد الإسلامي «بمعهد الدراسات الإسلامية» بالقاهرة بعد التخرج في حقوق المنصورة، حيث كان عضوا بمجلس إدارة المعهد الذي أسسه المرحوم الدكتور أحمد حسن الباقوري.

لم يكن «الدكتور الرئيس» وحده منتدبا من القاهرة للمنصورة، بل شاركه هذا الانتداب أربعة من فقهاء القانون في مصر الحبيبة، وبعد الله سبحانه وتعالى يرجع إليهم الفضل في تخريج أجيال زخرت بهم مصر بعشرات الآلاف في مناصب القضاء، والمستشارين، ووكلاء المجتمع، والمحاماة الحرة، وهم على التوالي؛ الدكتور «عبدالمنعم البدراوي» فقيه القانون المدني، والدكتور «محمود مصطفى» فقيه القانون الجنائي، والدكتور «الشافعي بشير» فقيه المنظمات الدولية، والدكتور «ثروت حبيب» فقيه القانون الدستوري. رحم الله «الدكتور الرئيس» وأسكنه فسيح جناته.

حامد عزت الصياد